

أى نعم . ذاك ما أعتناه يا نصيفة حياتى !

ذاك ما جعل نفسى مطمئنة

وقادرة على النظر ، دون ما ذعر إلى قسبات وجهك الوسيمة

تدوى عليها ألوان ربيعك الساطمة !

ذاك ما جعلك ترينى أبتسم

وأنا أموت شاباً فريسة تلك الطمعة التى أصبت بها !

ذاك ما جعل دموع الفرح تلمع فى عيني

عند رؤيتك الأخيرة ، فى وداعنا الأخير !

« أمل باطل ! » هكذا سيقول أتباع أبيقور !

إنهم سيقولون : « يا فائد الشهور ، يا من يخذلك غرورك

الكثير !

أنظر حواليك : فكل شئ يبدأ ويتلاشى !

كل شئ يسير إلى نهاية ! وكل شئ يولد ليموت !

إنك ترى الزهرة تدوى فى تلك الحقول الصفراء !

والأرزة الشائخة تسقط فى الغابة تحت أعباء السنين لتفنى

خلال الأعشاب !

إنك ترى البحار تجف فى أحواضها الناضبة !

والسموات نفسها قد أخذت بالاضمحلال !

حتى الشمس ، ذلك الكوكب الذى كتم الزمن مولده

تسير مثلنا نحو القضاء !

ولسوف يبحث البشر عنها يوماً فلا يجدونها ، فيقبحون فى

الفضاء الفارغ !

إنك ترى الدهور حواليك ، فى الطبيعة كلها ! تتراكم غباراً

على غبار !

وإنك لترى الزمن يخطو خطوة واحدة فيطويك مع

كبريائك !

ويتقلب كفننا لجميع ما أنتج !

والانسان ! والانسان وحده ! يا للجنون العظيم !

يظن أن سيمود ثانية إلى الحياة فى أعماق لحده !

ويحلم بالخلود ، بعد أن حطمه الزمن

وحمله العاصفة إلى الدم !

ألا فليجئكم سوى يا فلاسفة الدنيا !

ودعوني ووهي ! فالأمل يجب على وهو حبيب إلي !

إن عقلنا لينثر ويختلط عليه الأمر

نعم إن العقل ليسكت ، ولكن القلب ليجيب !

أما أنا ، فحينما أرى الكواكب

وقد تاهت عن طريقها السوي فى السهول السماوية

يصطدم بعضها ببعض فى حقول الأثير

وتتقلب دون ما غاية فى السموات المذعورة ؛

حينما أسمع الأرض تنز وتضطرم ،

حينما أرى كرتها الشاردة المنزلة

تسبح بعيدة عن الشمس ، باكية إنسانها الممالك !

لتضل فى حقول الليل الأبدى !

حينما أكون آخر شاهد لتلك المناظر الرهيبة ؛

حينما أظل محاطاً بالموت والظلمة

وبالرغم من وحدتى وجزئى

سأمل فيك أيها الكائن الحن اللطيف

وسأنتظر أيضاً ، وأنا فى العوالم البالية

مؤمناً بمودة الفجر الأبدى !

ما أكثر ما غمرتنى وإياك تلك الظلمة ونحن بعيدان عن

العالم ، يحدونا الأمل

تارة على قم الصخور الهرمة ! وأخرى على ضفاف البحيرة

الكثيية القاحلة !

أثناء مقامنا السعيد ... حيث بدأ حيننا الخالد

لدى النظرة الأولى كما تذكرين !

لقد كانت الظلال ، وهى تنحدر من وراء الجبال

بقطعها الطويلة ، تحجبها عن أبصارنا !

فلا تلبث كواكب الليل الغريبة

بعد برهة من الزمن
 إن ترحف دون ما جلبة أو أهبة
 وترد على أبصارنا ما حجب عنها
 وتسبغ على الأرض ثوباً من الأنوار الضئيلة
 كما يسبغ المصباح نوره المقدس على المعبود المقدسة التي
 أضاءها النهار بنوره
 فينير منها المياكل بعد ما تأخذ أشعة المساء تدريجاً
 بالاصفرار !

هنا كنت تفتشني ، وكنت تفتقن يبعري
 من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض نحو السماء
 وكنت تقولين : « إيه يا إلهي الخفي »
 إن الطبيعة هيكل لك
 إن العقل ليرك في كل بقعة تتأملها العين منها
 إن هذا العالم مرآة لكالك الذي يحاول العقل إدراكه !
 وصورة له وانعكاس عنه !
 إن النهار نظرتك ، والجمال بسمتك !
 إن القلب ليمبدك في كل ناحية !
 وإن النفس لتحيبك !
 أيها الخالد الأبدى ! أيها التقدير اللطيف !
 إن جميع تلك النعوت ليست كافية لتصوير عظمتك !
 إن العقل ليعنو أمام جوهرك العظيم !
 فيمجد عظمتك حتى لدى سكوته !

إلا أنه وهو ذاك العقل المهزم يا إلهي
 حينما يشعر أن الحب سر وجوده
 يندفع بذاك القانون الجليل نحوك
 متشوقاً إلى حبك ومتحرراً إلى معرفتك

لقد كنت تقولين ، وقد وحد قلبنا زفراهما المتصاعدة

نحو هذا السكائن المجهول الذي نعت عليه آمالنا !
 كنت تقولين ونحن جاثون أمامه وقد أجبناه في خلقه
 وحمل إليه الفجر المشاء تعجيدنا إياه !
 كنت تقولين وقد أخذت عيننا المنتشيتان
 نارة تتأملان الأرض : منفانا نحن !
 وأخرى تتأملان السماء مقامه هو ! :
 « آه لو أن الله يستجيب دعواتنا في هذه الساعة التي تحاول
 بها نفسنا الفرارة خلاصها وتحطم قيدها وإسارها !
 فيرسل علينا من علياء سمائه طمئة تحررنا كليتنا !
 إذا لرجعت روحانا نحو مبتعثهما دفعة واحدة !
 ولصعدنا على جنان الحب في ثنايا اللانهاية كأنهما خيط من
 نور ! حتى تصلا ، وقد اجتازتا في سيرها العوالم معاً
 أمام الله ، وقد ذهلتا عن ذاتيهما
 فتميشان إلى الأبد ممزجتين فيه !

أتريننا مخدوعين بهذه الآمال ؟ !
 أصائرنا نحن إلى المدم ؟ !
 أمقدر على أرواحنا الفناء ؟ !
 أقاسم الروح والجسد مصيره بعد خلاصها منه ! فتفنى معه
 في ظلمات القبر
 وتحول إلى غبار ؟ ! أو تتلاشى كما يتلاشى الصوت في
 الفضاء ؟ !
 أو لا يبقى ، بعد الفراق الفادح واللوعة الضائلة
 جزؤ يحبك من ذاك الذي كان يحبك ؟ !
 آه يا القيير ! لا تسألني سوى نفسك عن ذلك السر
 العظيم !
 وانظري إلى من أحبك وهو يموت
 ثم أجيبي !

امر هيتاني

عضو بثة أساتذة جمية المقامد في مصر